حرب ما بعد الحرب من خلال فيلم جوانا حاجي توما وخليل جريج الذي يجوب المهرجانات منذ شهور

«يوم آخر» شريط ماضٍ لبناني لا يمضي وأسئلة حائرة عن آلاف المخطوفين

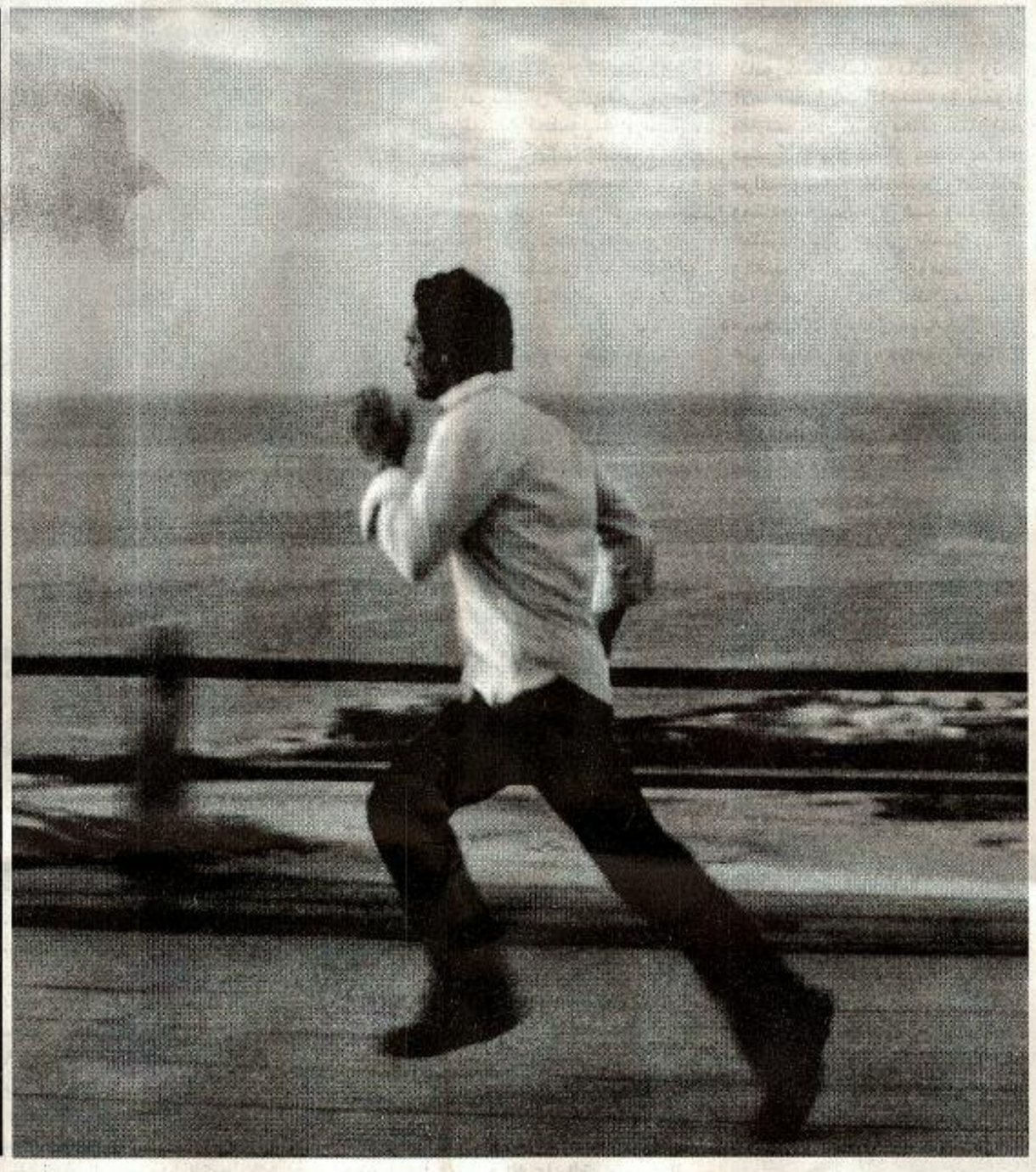

زياد سعد في لقطة من الفيلم

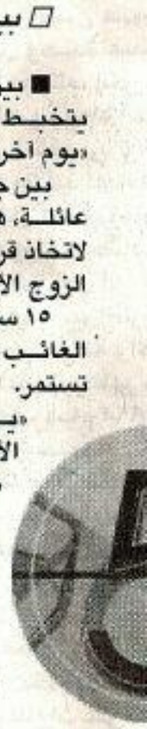

... وجوليا قصار

□ بيروت - فيكي حبيب

■ بين ثقل الماضي والرغبة في استمرار الحياة يتخبط بطلا جوانا وخليل جريج في فيلمهما الأخير «يوم آخر».

بين جيلين تدور الكاميرا خلال ٢٤ ساعة من عمر عائلة، هي في طريقها اليوم، في هذا اليوم الآخر، لاتخاذ قرارها الكبير. قرار من شأنه أن يحذف اسم الزوج الأب من عالم الأحياء وينقله الى عالم الأموات. ١٥ سنة مرّت على اختطافه والنبأ السعيد بعودة الغائب لم يصل أبداً... ومع هذا على الحياة ان تستمر.

«يوم آخر» ربما يكون بداية النهاية، نهاية الأمل والتسليم بالأمر الواقع مع «شخطة» قلم صغيرة. لكنه من دون شك يوم شاق حافل بالألم والتردد.

كل دقيقة من الـ ٢٤ ساعة التي يصوّرها الفيلم، يعيشها المشاهد مع بطليه كلوديا (جوليا قصار) ومالك (زياد سعد)، بعبئها وضغطها. كل دقيقة تختزن غضب السنوات الماضية من دون جدوى.

تعابير وجه بطلتنا. صمتها. حزنها. قسوتها. تردها. خوفها... لا تبتعد كثيراً عن تلك الوجوه التي تنقلها إلينا الشاشة الصغيرة يومياً من خيمة المخطوفين وسط بيروت. وجوه النسوة المعلقات بخيط أمل يعيد المفقود.

سبعة عشر الف مخطوف لا يعرف ذووهم إن كانوا بين الاحياء أو الأموات. عشرة منهم كرّمهم الجيش اللبناني الأسبوع الماضي بعد تحديد مصيرهم، واكتشاف رفاتهم في مقبرة جماعية.

هذا في نشرات الأخبار أما في الفيلم فبطلتنا لا تعرف مصير زوجها. استحقاق النهار - توقيع وثيقة الوفاة - يرهقها.

ابنها يبدو أقل تردداً منها. يريد أن ينتهي من الماضي الذي يكبله. يريد أن يفتح صفحة جديدة. يريد أن يحيا... لكن كل شيء من حوله يتدهور. علاقته بصديقته تتدهور. صحته تتدهور. نوبات النوم الفجائية التي تصيبه تتفاقم في كل مكان... في الملاهي، عند إشارات المرور، على الكورنيش...

بطلان سلبيان، كل على طريقته، يقتربان ثم يبتعدان... ما يضع جيل الآباء في مواجهة مع جيل الأبناء... مواجهة أرادها مخرجا الفيلم، صامتة بين جيل عاش الحرب، أو صنعها (ربما)، وجيل يحمل ترسباتها.

هستيريا

طبعاً ليس سهلاً ولوج موضوع بهذه الحساسية. ومع هذا لم يكن صعباً على الزوجين الثنائي جوانا حاجي توما وخليل جريج أن يقتحما عالم المخطوفين. هما اللذان ناداهما الى الموضوع واقع عايشاه منذ أواسط الثمانينات بعيد خطف خال المخرج في الحرب. يقول خليل: «اختطافه كان بمثابة الحافز الرئيس لأصنع فيلماً عن المخطوفين. إذ عشت تلك اللحظات المرة التي يتكبدها أهل المخطوف. والى اليوم لا يزال السؤال عن مصير الـ ١٧٠٠٠ مخطوف يؤرقني. أين هم؟ هل هم احياء ام اموات؟ إن كانوا أحياء لماذا لا يعيدونهم سالمين؟ وإن قتلوا، أين رفاتهم؟».

فيلم جوانا وخليل جريج فيلم شخصي يحاول ان ينقل صورة من الواقع. لكنه ليس فيلماً وثائقياً بل عمل درامي.

«لم نكن نريد ولوج الموضوع بشكل وثائقي»، تقول جوانا وتتابع: «أردنا أن نقدم هذه القضية بطريقة سينمائية فنية. أردنا أن نقدم فيلماً من الواقع، ونصور الجيل الذي ننتمي إليه. حب السهر، بيروت في الليل، الخمول... باختصار: الحاضر الذي نعيشه بطريقة هيستيرية».

وإذا كان «يوم آخر» فيلماً عن الحاضر، فالحرب لا تغيب عنه. لكنه مع هذا ليس فيلماً عن الحرب، وإن كانت الحرب تشكل خلفية أحداثه: الأب المخطوف، الخوف من توقف الحياة فجأة، وبالتالي استغلال كل دقيقة تمرّ. تقول جوانا: «طبعاً الحرب موجودة في فيلم يصور الحاضر في لبنان، طالما اننا لم نستطع حتى اليوم الخروج منها. لكن الفيلم ليس عن الحرب، بقدر ما يصور آثارها. فأنا مثلاً في كل مرة أعود فيها الى بيروت يتغير نمط حياتي بالكامل، وأصبح في حاجة الى السهر، فلا أفوّت أمسية، على عكس ما أعيش في الخارج. ولعل السبب يعود الى الشعور بضرورة الاستفادة من كل لحظة وعدم ترك الوقت يمرّ هدراً. وهذا الشعور هو طبعاً من مخلفات الحرب».

ثقل الوقت

الإحساس بالوقت لعبة اراد مخرجا العمل أن يشتغلا عليها في فيلمهما، هما اللذان سعيا لتكون وطأة الـ ٢٤ ساعة (زمن الفيلم) واضحة. يقول خليل: «العالم من حولنا مصنوع بطريقة تجعلنا ننسى الوقت. فالأعباء كثيرة والمغريات كثيرة. لكن الوقت ضيق. وفي السينما عندما يذهب المشاهد ليتابع عملاً ما، يكون في ذهنه انه ذاهب لإضاعة الوقت. من هنا أردنا في هذا الفيلم ان ننقل الى المشاهد ضغط الوقت، ونجعله يشعر بثقل كل دقيقة تمر. فنحن لم نمكث ٣ سنوات في صناعة هذا العمل كي يمر مرور الكرام».

«يوم آخر» فيلم مشغول على الطريقة الأوروبية غير الفرنسية. حوارات قليلة، تركيز على المادة البصرية، على العلاقة بين الجسد والحداثة. وبالتالي لا وجود لأي شروحات، إنما بكل بساطة يترك للمتفرج متعة المشاهدة. تقول جوانا: «من قال ان هناك قاعدة وحيدة في العمل السينمائي؟ من قال ان عليّ أن اعتبر مشاهدي سلبياً وبالتالي يتوجب عليّ أن أشرح له كل شاردة وواردة؟ في عملنا نريد ان نشرك المشاهد معنا. نريد ان نبني معه علاقة مختلفة. والإيقاع المعتمد هو الذي يعزّز هذا الأمر».

وإذا كان الفيلم مختلفاً في إيقاعه عن الأفلام العربية التي عهدها الجمهور، فإنه أيضاً مختلف في طريقة إدارة ممثليه. تقول جوانا: «أردنا أن نضفي على العمل عنصر المفاجأة، فلم نعط الممثلين السيناريو. طبعاً ممثلة قديرة كجوليا قصار لم يكن سهلاً إقناعها بهذا الأمر، لكنها في النهاية خاطرت ووثقت بما نفعله، علماً اننا لم يكن لنا معها أي تجارب سابقة».

ويبدو ان ثقة جوليا قصار كانت في محلها، خصوصاً أن العمل جال في المهرجانات العالمية، وحصد الجوائز، وكتبت عنه الصحافة الغربية. حتى ان مجلة «كاييه دي سينما» الفرنسية المتخصصة في شؤون النقد، أفردت له صفحتين من عددها الأخير. في واحد من مقالين ضمهما الملف قالت المجلة: «للوهلة الاولى، وكما في الفيلم الياباني الذي عرض في باريس الشهر الفائت في عنوان «ثنائي متكامل»، ليس في هذا اليوم الذي يدور في بيروت ما هو كامل على الإطلاق. فالشاب مالك (زياد سعد) لا يتمكن هنا من استعادة صديقته السابقة زينة (الكسندرا قهوجي)، حتى وإن كان في مرتين على الأقل قد اعتقد أنه دنا من ذلك. ذلك ان عليه أولاً ان يجهّز الإقرار الرسمي بموت والده، الذي كان اختفى مثله ١٧ الف شخص آخر خلال الحرب اللبنانية، اختفاء لا تفسير له. أما كلوديا (جوليا قصار)، امه التي لا يشعرها أي شيء بالعزاء، وتتسم بحب امتلاك قاس، فإنها لا تتوقف عن ضخ هاتفه المحمول بمكالماتها المستجوبة. ومالك، المصاب بنوع خاص من الداء العصبي، ليس حتى واثقاً من ان في الإمكان الحديث عن يوم ما (...). وإذا كان جوانا وخليل جريج قد عنونا فيلمهما الرابع «يوم آخر» (الترجمة بالفرنسية هي «يوم كامل»)، فما هذا إلا لأن زمنية أخرى.

صحيح أن النهار واللي
لكنهما ليسا هنا سوى
بين اليقظة والنوم، بين
لا يفتح على أي حلم او ع
الوعي عاجز عن إقامة أي

سيرة سينمائية ووثائقي

■ يعتبر فيلم «يوم آخر» ثاني فيلم روائي طويل من توقيع المخرجين الشابين جريج، بعد تجربة أولى لهما في العام ١٩٩٩ في «البيت الزهر».

ولعل السمة المشتركة بين العملين هي التشابك بين الماضي والحاضر. فإذ الآباء وجيل الأبناء ظاهرة للعلن في الفيلم الأخير، فإن المواجهة بين عقليتين، وا من أهم سمات الفيلم الأول.

ولا تقف مسيرة الثنائي السينمائية عند هذين الفيلمين، إنما كانت لهما تجارب منها «الخيام» (٥٢ دقيقة) صور سنة ٢٠٠٠، و «الفيلم الضائع» سنة في ٢٠٠٢. أ عودة الثنائي الى الأفلام الروائية من خلال فيلم قصير بعنوان «رماد»، رشح لجائزة

وعدا عن عملهما السينمائي صمم الزوجان جوانا وخليل معاً أعمال تجهيز في منها: «بيروت تخيلات مدينة» و «بيروت العجيبة».

واللافت في مشوار الزوجين السينمائي، هو دخولهما عالم السينما من حيث ! الادب في الجامعة. ثم قادهما الحظ وحده الى السينما، كما يقولان. واليوم لا يكتفيان استاذان محاضران في جامعة القديس يوسف في بيروت. جوانا مسؤولة عن قسم جماليات الصورة والفيديو التجريبي.